مقالات تربوية

دعوة للتآلف مع النقد

أ.د/ منال عبد الخالق جاب الله
أستاذ الصحة النفسية .. كلية التربية .. جامعة بنها

النقد واحد من أهم محددات ملامح التعايش محليا وعالميا، فتوجيه النقد وتقبل النقد وما بينهما مظهر من مظاهر السوية واكتمال تشكيل هوية الذات والمجتمعات، يحرك الجهود نحو البناء والارتقاء ويؤسس لإبداع حقيقي، وبقدر ما يكون هناك حوار وتقبل للنقد بقدر ما يكون هناك إصلاح وتطوير، فمن خلال النقد : توجيهه وتقبله ننتصر على نرجسيتنا وننفذ من الدائرة المغلقة التي قد ندور فيها، ونمارس التغيير بحق ونتشارك في المسئوليات ونقوم بواجباتنا نحو أوطاننا.

وفى استعراض النقد بمعناه وأشكاله، والتمييز بين النقد البناء حتى وإن كان ساخرا وبين الانتقاد والتجريح، يتضح واقع حال الهوية العربية عندما تغيب ثقافة النقد كناتج إرث ثقيل متراكم توارت عنه التربية التي تدافع عن حق الآخر في إبداء رأيه وتوجيه النقد بسلمية وحضارة ، ومآل الهوية الإنسانية عند التعصب وادعاء امتلاك الحقيقة المطلقة واستعراض القوة والتعبير عنها علوا على الآخر.

وفى تطلع إلى هوية متمايزة مستقرة دون وصايات فكرية أو استعراضية أو مديح أجوف، وإلى أصالة ومنهجية وقصد يبتغى صالح العلم وطلابه وصالح الدين والدنيا ، أشير إلى أن أبرز قدرات المرء هي قدرته على معرفة ذاته والتواصل معها لسبر أغوارها وتقييمها ومساءلتها ونقدها...، غير أن في ذلك مهمة خطيرة تعرض المرء للشقاء في مواجهة الحقيقة، وقد يختار البعض أن يمضى في حياة زائفة، وأن يختار نزرا يسيرا من المعرفة بالذات فيواصل حياته متجنبا كل ما قد يحرمه مشاعر الرضا والزهو والفخر. نعم، يمكنه ذلك، ولكن أنى له عندئذ أن يتقبل الآخر ويتعامل معه؟

إن الوجود الإنساني وحدة تعكس وحد الأنا والآخر، هكذا خلقنا الله وعلي ذلك هي فطرتنا، تواصل وحوار وتعليم وتوجيه وإرشاد ونقد، كلها عمليات تبادلية، والمبدأ الأساسي للوجود الإنساني يقول: الخير ينمو إن تقاسمناه، إنها الدعوة لنتقاسم الرأي والرؤية، ليكون كل منا مرآة للآخر تعكس وجوده، ولولا أننا نتعلم من بعضنا البعض، ونوجه بعضنا البعض، وننقد بعضنا البعض، ونستفيد من دروسنا ماحزنا المعرفة والحكمة.

وإنني أسأل: من منا يدعى أنه يملك حقيقة مطلقة؟ كثيرون في واقع الأمر يظنون ذلك، وأقول: إذا كان مطلوبا منك أن توجه النقد للآخرين لأنك صاحب خبرة ودراية ومعرفة وسلطة ومكانة، فمطلوب منك أيضا أن تبحث في ذات الوقت عمن يوجه لك

النقد لتعرف منه هل عليك أن تتغير وتعيد ترتيب أحكامك. لكن الحقيقة هي أن معظمنا يجد صعوبة في تقبل النقد، بل ويرفضه أحيانا.

قد يكون توجيه النقد قسوة إذا أصاب الآخر في مقتل، ويصبح أكثر قسوة إذا صدر من شخص دون آخر، والعكس أيضا صحيح، فكثيرا ما يميل الفرد إلى عدم الاهتمام بالنقد فلا يأخذه مأخذ الجد لأن فلانا دون غيره هو من وجه النقد. ويكون النقد قاسيا أيضا إذا كان يذكر الفرد بعجزه وقلة حيلته وصعوبات وعراقيل لا يستطيع منها فكاكا، أو إذا طال جانبا من جوانب الذات والحياة ينطوي على جرح لا يسع الفرد علاجه، ويتعقد الأمر إذا كان الفرد لا يفهم مقصد من يوجه إليه النقد وبخاصة إذا كان ذا قيمة كبيرة في نظره، فليس هناك أسوأ من تلقى النقد من أناس يعتبرهم الفرد مهمين جدا في حياته.

وقد يكون النقد هداما محبطا مهددا، فظا وهجوميا وغير منصف، يعطل ولا يدفع للأمام، هدفه الاستعراض بالقوة والنفوذ والسلطة، مبنى على أسس غير علمية، وقد يكون نقدا للتعالي وازدراء الآخر وتقليل منزلته، وقد يكون للتشويش وإحداث الفتن، وهو بذلك يعتبر أي شيء بخلاف النقد الذى يحتاجه الواحد منا من الآخر.

وقد يكون النقد بناء داعما مشجعا وموضوعيا يعلم وينمى ويقيم بإنصاف، يثرى التواصل ولا يقطعه، يعطى دفعة للعمل ويساعد على تطوير الأداء وتعلم معارف ومهارات جديدة، لا يدخل إلى النية والمقصد بل يركز على الجوهر فيكمل البناء ويتم النقص، لا يتأثر بهوى ولا تعصب ولا أفكار مسبقة، وهو لذلك نقد متجرد عقلاني منصف لا يمدح ولا يجامل ولا يزكى، يختار أحسن وألطف الكلمات والعبارات في تواضع واحترام.

ولا يسعني اجتياز الكلام عن أشكال النقد دون الإشارة إلى النقد باستخدام السخرية، فهناك نقد ساخر بناء دافعه الحب واستبقاء الود بعيدا عن جرح المشاعر، هدفه تمرير الحقيقة في سياق غير مباشر، نقد يستفيد من بلاغة قلب المعنى وإظهار عكسه أحيانا في ثنائية تأتى بالذم في قالب المدح، وبالجد في قالب المزاح، فهو إزاحة أو استبدال بلغة علم النفس، يتيح الوقوف على مسافة أو بعد متفاوت مما نقصد التعبير عنه في عين الحقيقة. واستخدام السخرية في تقديم النقد اختبار لبصيرة الفرد الذى يوجه له النقد، إذ تبلغ المواجهة عندئذ قمة المخاطرة التي لا تثنى الفرد عن الدفاع عما يؤمن به من مثل وقيم.

وترتبط السخرية بشخصية من يوجه النقد، فالناقد الساخر يعتمد الشفافية والحكمة لتنشيط الفكر وتحرير الوعي والكشف عن النقائض دون اندفاع أو عدوانية، ويخاطب العقل في هدوء يدفع إلى البكاء لا إلى الضحك، لأنه انتصار للحقيقة من خلال خدعة سحرية لتوجيه النقد بصدق وجدية. والنقد الساخر معناه أن الناقد يأخذ من ينتقده إلى صفه، ويؤكد له بشكل غير مباشر أنه ذكى بما يكفى ليفهم المعنى فيقطع نصف الطريق إلى الإصلاح والتقويم. وإذا بلغت السخرية مبلغ التهكم والتشويه والتجريح فإنما هي آية ظلم صاحبها وجهله وسقوط مروءته، لأنه عندئذ يكون فاقدا لحس المنطق وشجاعة المواجهة.

هي "دعوة للتآلف مع النقد" إذن وتقبله وحسن تقديمه، ويستطيع الواحد منا أن يتقبل النقد ويوجهه إذا كان يملك رغبة صادقة في الفهم والتعلم ولباقة وكياسة وتواضعا، وإذا كان يلزم الإنصات الانتقائي ويختار أنسب الكلمات، ويتبنى وجهة نظر الآخر بجدية وموضوعية. فالتبادلية التي سبقت الإشارة إليها هي أساس تقديم النقد وتلقيه على علم ودراية، دون السؤال عن النوايا والمقاصد ودون تشكك في الأهداف والتوجهات، فليست الساحة لتصيد الأخطاء وإفساد الود، وإنما الأولى إنزال الناس منازلهم دون ولاية أو إجبار، ولكل حكمته في معالجة الأمر.

وفي حوارنا مع الآخر قد يضللنا استخدام اللغة فنظن الأمر لا يحتاج إلى جهد ، غير أننا يجب أن نحذر غموض المعنى والتباس القصد في بعض الأحيان، كما أننا يجب أن نحذر نوازع الذات ومغالطاتها، أو ارتباكها الناتج عن اضطراب الانفعالات في أحيان أخرى، والحذر أيضا واجب من التحيزات والانطباعات السابقة ونظريات العزو وقولبة الأفكار، ومن التركيز على جوانب يستحيل تغييرها أو تعديلها مهما حاول الفرد، هذا كله إلى جانب أهمية اختيار الوقت المناسب والذى يكون عاملا حاسما في تبادل الحوار وتقبل النقد.

وإذا كان النقد علامة استمرار العلاقات وفاعلية التواصل ، وإذا كان للنقد قواعد وآداب وأخلاقيات، فإنني أسأل: هل تتيح التربية التي نقدمها ممارسة النقد البناء تجاه الذات وتجاه الآخر؟ هل يقف شبابنا على منظومة أخلاقية تحكم توجيه النقد وتحول دون انفلاته الذى يدفعنا إلى استنكار قسوته وأحيانا شراسته؟ هل نمارس النقد فعلا أم هو انتقاء وحصار وعزل وإقصاء؟ من منا يقبل أن يتحول النقد إلى سباب أحيانا وإلى عدوان أحيانا أخرى؟

إن الإجابة عن ذلك تكون بالتأكيد على أهمية الحوار وتبادل الرأي ارتقاء بالفكر وضمانا لسلامته في تعايش وتفاهم دون فرض للآراء أو ادعاء بامتلاك الحقيقة المطلقة.

إن الحوار وتقبل النقد وحسن توجيهه مظهر من مظاهر السوية والصحة النفسية والعافية المجتمعية لأنه استثمار للجهود نحو البناء والارتقاء والتطوير، ودليل على أننا انتصرنا على نرجسيتنا وأصبحنا شركاء في المسئولية نحو ذواتنا ومجتمعاتنا.

وفي مقال قادم نتناول النقد باعتباره مدخلا لاكتمال الهوية الإنسانية وسبيلا لترسيخها، فإلى لقاء متجدد على خير بإذن الله.